أيوب

تمثال الصبر ، وقوة الجلد ، وتحمُّل الوطأة ، وطأة الابتلاء .

بل تمثال للعقيدة الراسخة ، والفكرة التى تستبد بصاحبها ، فلا يتحول عنها ، ولا يتحلل منها . مهما تنكر له وجه الزمان ، وتآزرت عليه الحدثان ، فهو هو ، لا يستطيع فكاكا من دين اعتنقه ، ولا يأسًا من ربٍّ وعده ، والله لا يُخلف الميعاد .

* * *

يضرب الناس المثل بصبر أيوب ، وما أحقهم أن يضربوا المثل بثباته على مبدئه ، وصلابته فى رأيه ، وصموده على عقيدته ، أمام الحادثات .

* * *

وإذا قويت الروح ، ونضج الرأى ، وثبت المبدأ ، وكبرت النفس ، تضاءلت سطوة الجسد ، وتطامن الجسم ، وراحت بهيميته ، وزكا القلب ، وشف الفؤاد ، واتصل حبله بحبال نور الله ، فأصبح لا يرى إلا الله ، ولا يحس إلا روح الله .

ويتخلَّف الجسد وراءَ الروح ، فتتحكم فيه ، فتحرقه بنار الصوم عن حطام الدنيا ، فيخف ويضمر ، وتجرجره ، فيقوم الليل ، ويوالى الصلاة ، حتى تهد قوته ، وتكبح الميل فيه ، فلا يضل ولا يتيه إلا فى ساحات رضوان الله .

وتترطب الروح بالرضا ، ويكتوى الجسم بالكبت والحرمان .

ولأمر ما ، أمر الله سبحانه ، نبينا محمدًا ﷺ ، أن يقيم الليل إلا قليلاً ، نصفه ، أو ينقص منه قليلاً ، أو يزيد عليه ، وما يتبقى من الليل ، يرتل فيه القرآن ترتيلاً .

إن ذلك كان لتتربى نفسه ، وتنمو روحه ، وتسمو على جسده ، فتثبت عقيدته ، وتتعلم على هذه الطريقة أمته .

* * *

وبمثل هذا ، ربىَّ الله الأنبياءَ من قبله ، وربىَّ أيوب الصابر ، الثابت العقيدة ، المتين المبدأ ، الصامد فى البلوى ، الراضى بالقدر ، الشاكر لله .

ياليتنا نأخذ أبناءَنا بهذا الأسلوب فى التربية ، أسلوب التسامى ، فتقوى فيهم الروح ، وتتحرر العقول من أغلال الجسد ، وتنفك عنهم أغلال الشيطان .

* * *

ويدعى الغربيون من علماء التربية أنهم أول مَن وصلوا إلى نظرية التسامى فى التربية ، وما يدرون أن الله سبحانه ، رسم للبشر هذه النظرية فى كتبه السماوية .

* * *

وعندهم وسيلة التسامى ، استهلاك ما زاد من حيوية الجسم فى الألعاب والهوايات بالنهار ، والنهار جُعل للمعاش لا للألعاب ، والليل سَكَنٌ للنفس بالعبادة ، وسكن للجسم بالراحة ، وسكون النفس بالعبادة لا يكون إلا بإقامة الصلاة بالليل ، فى صبر وتجلُّد .

* * *

وها نحن أولاء . لم نأخذ بنظرية التسامى . لا بما رسم الشرع . ولا بما رسم الغربيون المربون . فلا بالصلاة أقمنا الليل ، ولا بالألعابَ قومنا الأجسام ! .

* * *

ونعود إليك يا أيوب ، فنراك شاكرًا ، إذا أعطى الله أو سلب .

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (العنكبوت الآية ٢)

ولقد فتن الله إبليس ، فما قَوِىَ على الابتلاء والاختبار ، وانكشف وَهَنه وخَوَرُه ، وتوارى فى كبريائه وعناده ، فهلك .

وفتن الأنبياء ، فصبروا ، واعتصموا ، وركنوا إلى شاطئ طاعة الله .

* * *

وفتناك يا أيوب ، فى رزقك الرغيد ، ونَعَمِك الوريفة ، وفى أولادك ، وفى زوجتك ، وفى جسدك .

ابتلاك ، فخلعك من نعيم الرزق ، فرضيت وما تغيرت .

وأمات أولادك ، فتجلدت ، وما كفرت ، وامتحنك بالأمراض والأوجاع ، حتى نفر منك الأهل والأحباب ، فما جزعت ، ولا يئست ولا فارت نفسك !

وأقلق زوجتك ، وأضجرها من طول ما شقيت تحتك ، حتى سئمت وزهقتْ ، وقلبت لك الكف ، وأدارتْ الظهر ، وأسبلتْ الجفن ، وتأوهتْ من خدمتك ، وتمنت خلاصًا من حملك ، فحَلفْتَ يا أيوب ، لئن شفاك ربك ورد إليك عافيتك لتضربنَّها مائة سَوْط .

وطالت عليك مدة الابتلاء ، ولم يبق إلا الصبر والجلد ، وحسنُ الظن بالله . والتعلق بأهداب رحمة الله ، والاعتقاد فى لطف الله .

* * *

يا رحمة الله ! كل هذا وأنت صابر يا أيوب !

وأنت مطمئن شاكر ، على نعم باقية ، لا تزال تغمرك ، نعمة حياة أبقاها الله وكان سهلاً أن تموت ، ونعمة كشف بصرك عن خداع المخادعين من الأهل والأصدقاء فى وقت محنتك ، وما كانت تنكشف لولا هذه المحنة ، ونعمة بها عرفت أنك ما تزال فى محبة الله ، والحبيب يمتحن الحبيب ، ونعمة أنك مرقت من الفتنة والافتتان بما كان من أهل وصحة وولد .

ونعمة فوزك برضاك وطيب نفسك فى البلوى ، تسبح بكل هذه النعم فى بحار طاعة الله .

* * *

ياليتنا يا أيوب ، على شىء من صبرك ، وربح من جَلدِك ، ومس من التجائك إلى الله ، ونفح ماتشم من نسائم فضل الله .

* * *

أى أدب أدبك يا أيوب ، يوم بلغ الصبر بك مُنتهاه ، والتحمل والتجلد مداه ، ويوم فزعت تضرع إلى الله ، فنسبْتَ هذه البلوى إلى الشيطان ، وما نسبتها إلى الله .

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾

(ص الآية ٤١)

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾

(النساء الآية ٧٩)

بشراك يا أيوب ، فرحمة الله وسعت كل شىء ، ورحمة الله قريبٌ من المحسنين .

وإذا العناية لاحظتك عيونها نمْ ، فالمخاوف كلهن أمان

وإذا أذِنَ الله بالشفاء ، كان كل شىء دواءً ، وكان كل ماء بلسما وشفاءً .

وكانت الرحمة طبيبًا يوم لا تجد طبيبًا ، ويعود كل نافرٍ جاف حبيبًا ، ولم يكن بالأمس حبيبًا .

* * *

يا أيوب ، اضرب الأرض برجلك ، ينفجر الماءُ من تحتك ، فاشرب وارو ظمأك واغسل جسدك ، وامسح مرضك ، والبس ثوب عافيتك ، وتحلَّ بحلى شبابك ، واستعدْ نضارتك وقوتك ، واخرج على قومك سليمًا معافى زينةً للناظرين .

* * *

ويا أيوب ، هذا رزقك ونعيمك . وهؤلاء أهلك ، وقد أصلحنا لك زوجك ، ووهبنا لك أولادًا عوضا من أولادك ، ومثلَهُم معهم ، لتقر عينك ويرتاح فؤادك ، وتطيب نفسك .

فرحمتنا تشملك ، وكل ذى عقل يتذكر ، ويعتبر بك .

وهذه الزوجة ، التى صابرتك ، وفى مرضك واستك ، وأفرغت جهدها فى تطبيبك واستهلكت طاقتها فى تمريضك ، لم تشكُ ولم تتبرَّم ، إلا بعد أن نفد صبرها ووهن عزمها ، وليس عزمها مثل عزمك ، ولا صبرها كصبرك .

وهى قدمت لك الكثير ، وتخاذلت فى القليل ، خلطوا عملاً صالحًا ، وآخر سيئًا ، عسى الله أن يتوب عليهم .

وقد تبنا عليها يا أيوب ، أفلا تتوب عليها أنت ؟ وتغفر لها ؟

وفداءً ليمينك يوم حلفت عليها أن تضربها مائة سَوْط ، إنْ شفيناك وعافيناك ، وتحللاً من قسمك . قد هونَّا عليك ، أن تأخذ حزمةً من أعشاب رطيبة ، فيها مائة عود ، وتضربها بها ضربة واحدة ، لينة هيِّنة ، فترطب حقدك ، وتصلح زوجك ، وتدفئ حبك ، وتقر عينك .

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ (ص الآية ٤٤)

﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (ص الآية ٤٤)

* * *